الأهرام

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

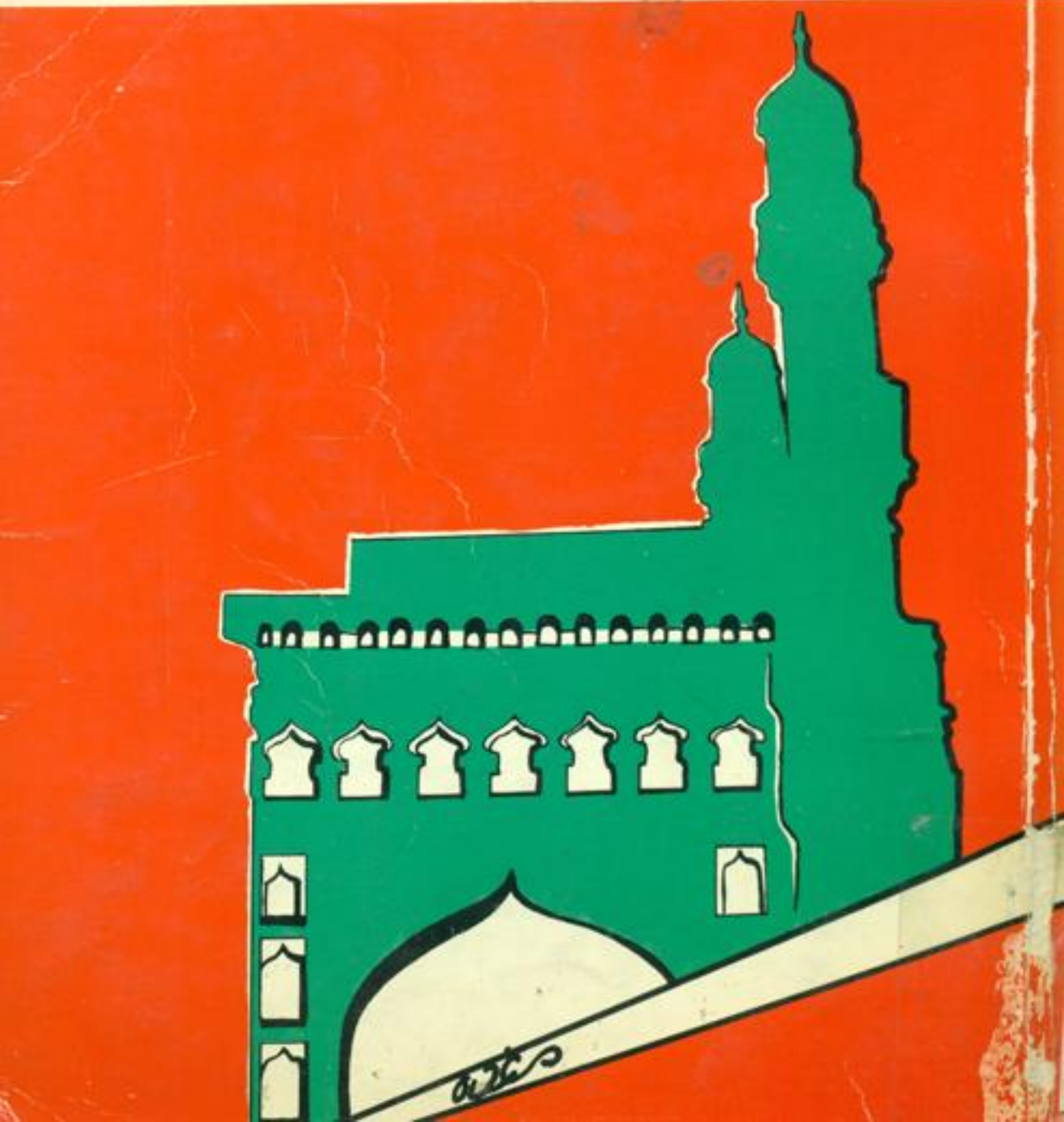

فن السندي والغناء التأريخي

للدكتور أسعد علي

هذا جزء من دراسة أوسع وضعها الدكتور أسعد علي لتكون مقدمة لديوان من الشعر الشعبي العراقي لناظمه السيد مرتضى بن محسن بن رفيع الدين الحسني السندي وهو شاعر من القطر العراقي من مواليد ١٩٥٠ حائز على الليسانس في الادارة والاقتصاد من الجامعة المستنصرية ـ بغداد عام ١٩٧٥ ، واتجه مبكراً للخطابة وإحياء ذكريات الائمة في المآتم والمواليد فشارك في ذلك مشاركة فعالة في العراق وسورية ولبنان ، وعرف بصوته الجميل وأدائه الحسن وطريقته المؤثرة وله أيضاً مساهمة في حقل التأليف حيث صدر له كتاب نهج الشهادة (بيروت ١٩٨٢) وكتب أخرى مطبوعة ومخطوطة .

وهذا العرض الشيّق يتناول ديوانه الجاهز للطبع «المدائح المنظومة في العترة المظلومة» مع الشكر للدكتور أسعد علي على هذه المساهمة الطيبة .

«الموسم»

لا أريد الاعتزاز بالآراء العالمية التي قيلت من أكابر العالم بحق محمد (ص) أو بحق آل محمد (ع) . . بل المعزة نالها المستفيدون من تذكر المبادىء المحمدية ؛ فنحن عرفنا اسم «مايكل هارت» ، صاحب كتاب «المائة الأوائل» ؛ لأنه اهتدى إلى الحقّ الذي أنزل مع محمد (ص) . . ورأى واقع كوكب الأرض عبر المؤثرين به ؛ فاقتنع وأقنع بأنّ محمداً : أعظم شخصية كونية شرفت هذا الكوكب . . وليس مايكل هارت : شاعراً شعبياً شيعياً كشاعرنا السندي ؛ بل هو عالم فلكي أمريكي الجنسية ، وسمعت من يقول : إنه يهودي الأصل . .

وكذلك نذكر لإيمرسون ، في «تقاليد الأدب الأمريكي» : أنه اعتمد كلمات من الإمام علي (ع) ؛ وبنى عليه : بيانه الاستقلالي ؛ الذي شجع أمريكا على مواجهة الواقع والاعتماد على النفس ، للتخلص من استعمار بريطانيا له . . .

واسم جبور عبد النور ، صاحب «المعجم الأدبي» : من الأسماء التي ضمنت لذاتها ذكرى بيننا ؛ لأنه فهم معنى الثروة الإنسانية المفيدة لكل جيل من أجيال الناس في كل حضارة من الحضارة . . . وأكد أن الثروة في كلام عليٍّ (ع) ، الذي جمع بنهج البلاغة . . .

والمستفيدون من كلمات هذه الشخصيات الهادية : أفادوا شعوبهم وأنفسهم ؛ فغاندي مثلاً ؛ وهو محرر بلاده من الاستعمار الانكليزي : يذكر اقتداءه بالحسين (ع) ؛ ويحض شعبه وأهل الحق في الشعوب : ليقتدوا بالحسين وتحمله الظلم من أجل الإصلاح في أمة جده خاتم النبيين . . (ص) . .

ومحمد إقبال في باكستان : ذكر السيدة الزهراء كقدوة لنساء العالمين ، وحث نساء بلاده ليقتدين بها . . كما حث على ذلك النساء جميعاً ؛ لأن ذلك طريق الإنقاذ ، وسبيل الحياة النقية المشرفة . .

وغيرهم . . وغيرهم . . وحول كل اسم من أسماء هذه الشخصيات : وضعت أبحاث كثيرة . .

والمهم في كل ذلك : أن أصحابه هم الذين أفادوا من أقوالهم الكريمة بالنبي وآل بيته . .

والسيد مرتضى السندي : مثل هؤلاء الأذكياء في العالم ؛ لاحظ ما لاحظوه ؛ وقال مثل الذي قالوه بطريقته الشعبية . .

والذين أسعدهم الحظ مثلي ، وسمعوه وهو ينشد هذه «المدائح» : يفهمون مغزى قولي «بطريقته الشعبية» . . وهي طريقة آثرة ومميزة ؛ يبدأ بالإنشاد . . وبعد قليل : ينشد معه كل من في المجلس . . أو من يحب . . ومرات ومرات : كنا نطلب منه إعادة مقطع من المقاطع . .

وهذه الملاحظة : مفيدة للقارىء إيضاً ؛ فإذا أعاد قراءة المقاطع ، واستعادها لنفسه : تجود عليه بما يشرح صدره ويغسل همه ويواسيه . .

وكل القصائد صالحة لهذا الاختبار ؛ فالغرباء المحزونون : يجدون بأناشيد هذا الشاعر الشعبي ما يطهرهم ، كما يقول «أرسطو» في «فن الشعر» ، بشأن تأثير الفن التطهيري . . ومن يسمع إنشاده لها : يجد لذة البكاء تحرره من كبوته الاجتماعية الخانقة . . ونمثل لذلك بمطلع قصيدته في ذكرى الإمام الجواد ، (ع) ؛ يقول :

يـا بـاب المـداد هـمّ الـكَـلب زاد
صـار إلـنـه خمس سـنين مـا شـفـنـه بـغـداد

الشاعر : عراقي ؛ ولكنه كما يقول : لم يَرَ بغداد منذ خمس سنوات ؛ والآن مر ستتان ؛ فالقصيدة : نظمت بتاريخ (١٠ رجب ١٤٠٥) . . . كل مفارق لوطنه : في قلبه هم من الفراق ، واهتمام للعودة ؛ والرجاء ممدود ، فهذا النداء «يا باب المداد» : يفتح باب الأمل بتطهير القلب من همّه ؛ وفي المقاطع التالية : بَثٌّ على باب المداد ، الذي صاحبه الجواد ؛ وهذا البث بالتكرار يؤثر ويظهر :

فـركـتَ الأوطـان سجـنـت أفـادي وأمـسـت الآلام مشربي وزادي
يمته نـرجـع لـيـك يـا أبـو الهـادي ورايـة الإسـلام تـرف بـبـلادي
يـا منهـل الجـود ليكم متى نعـود انحشم وتجري العين جي عنك إبعاد . .

قد يحتاج القارىء للتأني مع الكلمات : ليعرف أن «الكَلب» تعني : القلب . . وأن «فركَت» ، تعني «فرقة الأوطان . . وأن «يمته» ، تعني : متى . .

لكن الجوَّ العام للقصيدة : يظل واضحاً ، حتى للفصحاء ؛ بل قد يعطيهم فرصة للتأمل اللغوي ، والتبادل بين الحروف . . .

وما قصدته ، هنا : يتجه إلى المواساة التي يقدمها هؤلاء الأئمة (ع) لمن يشكو همًّا ويتجه إليهم . . وتلاحظ أساليب صاحب «المدائح» في المناجاة الحنونة ، كما يشكو الأبناء للآباء ؛ نأخذ مثلاً من توجهه إلى أبي تراب في ذكرى الغدير :

يا علي فرقة ضريحك هيجت جمرة غرامي . . . اشلون اصبر بدار الغُرب . . . وبلادي حرقتها الحرب . . . مولاي من جرح الكَلب . . . إلك أرد أبعث سلامي . . .

وقد يتحول حال الشاعر بعد مثل هذا التوجه : فيختم القصيدة بشعر فصيح يعيده إلى لحظة التاريخ المشرقة ، كما حصلت في حينها ؛ ومن ذلك ما تلا المقطع السابق ختاماً لنشيد الغدير :

أأبا الغيثِ أغِثْ من يرجو . . . بِلِواكَ صدى الاستنصار . . . وارسمْ في القلبِ سروري . . .
أنتَ أمامي وأميري . . . بخٍ بخٍ لك يا مولاي . . . ومولى كل الأحرار . . .

لقد ضمن في السطر الأخير ما ذكره الطبري وغيره ، في كتاب «الولاية» : من كلمات الخليفة الثاني ؛ حيث هنأ علياً بعد بيعة الغدير ، أو وصية النبي لعلي . . بكلام مفصَّل معلوم في كتب التاريخ ؛ تاريخيًّا : يحتفي المهتمون بذكر واقعة الغدير . . وكيف بايع عمر وأبو بكر وعثمان وغيرهم عليًّا بحضرة رسول الله ، في ذلك الوقت المعلوم من يوم الخميس ، الثامن عشر من ذي الحجة ، في السنة العاشرة من الهجرة النبوية . . ويمكن لمحبِّ الاطلاع : أن يتأمَّل بما ذكره الأميني في الجزء الأول من مؤلفه «الغدير» ؛ فقد ذكر من رواة الغدير (١١٠) عشرة ومئة من الصحابة . . . (جـ١/ص ١٤ ـ ١٥٧) . . .

شعرياً : يصور الشعراء عادةً أحداث التاريخ وينفذون منها إلى مثل اليقينيات الكونية في الطباع والطبيعة . . وللموازنة بين الشاعر والمؤرخ : فصول واسعات في كتب النقد الأدبي ؛ نرى ذلك عند : أرسطو ، وردزورث ، كولردج . . وغيرهم من نقادِ الآداب العالمية . . ونرى ذلك ماثلاً في شعرنا العربيِّ ، عند أبي تمام «الإنسان والتاريخ في شعر أبي تمام» مثلاً . . شعر المتنبي وسيرة سيف الدولة . . . شعراء التشيع أمثال : دعبل . . . والسيد الحميري . . الكميت . . المنتجب العاني . . وغيرهم . .

«المدائح المنظومة في العترة المظلومة» ، بجزئية : معرضٌ جيِّد لتلاقي التاريخ والشعر بأسلوب شعبيٍّ مغنًى . . وكم يكون مفيداً لو أنه يسجله بصوته كما ينشده مع الجمهور : ليتمكن القارىء من تمام الفائدة بالانتقال مع الصوت إلى حال التأثر بالوقائع التي تصورها القصائد ؛ فرحة : كمولد النبي ، (ص) . . الزهراء . . الأئمة . . (ع) الغدير . . أو حزينة : كذكريات العرفات ؛ واقعة كربلاء . . . الخ . .

من ارشيف الموسم

صورة تذكارية فريدة للشاعر الهندي الشهير رابندرانات طاغور وكنته . مع كل من الراحلين : الملك فيصل ملك العراق ، والملك علي ، والسيد محمد الصدر ، ونوري السعيد ، وجعفر العسكري . أخذت هذه الصورة في بغداد سنة ١٩٣٢ عند زيارة الشاعر طاغور للعراق .